٢ ـ عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

ثم انظر كيف فهم الرسول صلى الله عليه وسلم نفس عمرو : لقد قال : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » لقد أسلم الناس حبا فى الاسلام وقد دفعتهم عواطفهم وهدتهم طبائعهم ، أما عمرو فقد حسب للأمر حسابه ، ووزن ربحه وخسارته ، حتى إذا اطمأن فقد آمن . وقد أقبل واثقاً . . هكذا أصاب الرسول الكريم فى فهم هذا الرجل الجليل . وان الرسول ليعرف أن عمرا كان تاجرا داهية ومساوماً ماهرا . . . وأنه قد بذل الثمن وينتظر الربح ، فهو لا يضن عليه بما يريد فيؤمره على سرية ذات السلاسل ، ويؤمره على المدد الذى أرسله اليه وفيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ونفر من الأنصار والمهاجرين . . . إن الرسول ليعرف أن هؤلاء كلهم لا ينظرون إلى ولاية أو إمارة . . . لأنهم لا يلقون جزاءهم عن الايمان إلا عند الله ... أما عمرو فيجادل أبا عبيدة على الأمارة ... ويقول له : « إنما قدمت على مدد ، وأنا الأمير ولا امارة لك ... » فينزل له أبو عبيدة عن الامارة وكفاه شرف الجهاد ... ثم انظر كيف يفهم أبو بكر نفس عمرو ... انه ليفرده بفتح فلسطين ... إنه ينقده ثمن ماسيبذل من جهد فى الفتح ومهارة فى القتال ... ولو قد طلب اليه أن يكون مكان يزيد بن أبى سفيان مثلاً على جيش دمشق ... لربما كره عمر ... وربما لم يبد من المهارة ما أبدى فى أجنادين ، ولكنه خليفة رسول الله ، كان يعرف عمراً خير المعرفة ... فنزل له عما يريد . ولم يقصر الفاروق فى هذا فتركه حراً فى فلسطين ، لم يعزله كما عزل خالدا ... وكان عمر يعرف كذلك أن عمراً مغامر ... وأى تاجر لا يغامر ؟ وأى رجال المال لا يرتاح الى المضاربة والمغامرة والتعرض للغنم العظيم أو الغرم الذى يقصم الظهر ... ولكنه كان يعرف فيه حذق المضاربة ... وأنه لا ينزل السوق إلا كاسباً ، ولهذا ... أقره على فتح مصر ولم يفرغ بعد من فتح الشام ... وكان عمرو فى ذلك مساوماً ماهراً ومقنعاً ذا حجة ودهاء ... فلم تثبت اعتراضات عمر الثبت الحصيف الدقيق الذى يضن بمسلم واحد على أن يجازف به وإنما اقتنع سريعاً ... كان عمرو ماهراً لسناً بارعاً حين خلا بابن الخطاب وهما عائدان من فتح فلسطين ... وكان امهر حين انساب فى جنح الليل يسعى الى مصر سعياً ... لقد خشى أن يعود أمير المؤمنين فيقبض يده ... وقد خشى أن يراجع عمر نفسه ... أو خشى أن يثنيه أحد عن عزمه ... وما أخطأ عمرو فى ذلك ... فما هى ساعات لا تنقضى على سيرة عمرو حتى يقبل عثمان فيعلن اليه عمر نبأ غزاة مصر ... فما يكاد عثمان يسمع الأمر حتى يراع ويصيح به : « يأمير المؤمنين : إن عمراً لجرئ وفيه اقدام وحب للأمارة ، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولاجاعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا ... » فيشفق عمر على المسلمين اشفاقاً شديدا ... وتحدثه نفسه أن يستوقف عمراً ، ولكن عمراً قد مضى من أيام ... ولعله قد دخل حدود مصر ، ولعل الرسول لا يبلغه إلا وقد دخلها ... وما ينبغى لجيش إسلامى أن يدخل بلادا ثم يبارحها من غير فتح ... تلك إذن هزيمة لا تليق بجند الاسلام

... إذن فليسرع بالكتابة اليه ، فان أدركه الرسول قبل أن يدخل حدود مصر فليرجع ، وما فى ذلك حرج ... وإذا كان قد دخلها ... فليمض على بركة الله ، وليبعث اليه الامداد سراعاً تباعاً ... كما كان عمرو يقرأ ذلك لكنه من كتاب ! وكأنى به وقد قدر أن الخليفة لا بد أن يستدعيه ، وأن أحدا لا بد لائمه فى ذلك الأمر ... فها هو ذا يقرأ كتاب الخليفة دون أن يفتحه !... وها هو ذا يحتال حتى يدخل أرض مصر ... لا لأنه يعلم أن الخليفة قد قال ذلك ... بل لكى يقول للخليفة إذا أمره بالرجوع : « وكيف أنسحب وقد دخلت أرض مصر ... فكأنى بالروم تقول : خافتنا العرب ... »

إلى هذا الحد بلغ ذكاء هذا الرجل وحسن تقديره ودقة بصره ... حتى عمر نفسه على ما عرف عنه من الذكاء الخارق لم يدرك شأو ابن العاص فى فن الحساب والتقدير ! ... ...

وأى صفقة هذه ... لقد ربحها ابن العاص ... إنها مصر التربة الغبراء ... والشجرة الخضراء ... « طولها شهر وعرضها عشر » كما يقول فى وصفه البليغ لعمر ... ثم انظر كيف يعرف الرجل سبيل استغلال « هذه اللقمة » السائغة ... إنه يقول : « ألا يتأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ... وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها .... فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ... تضاعف ارتفاع المال [1] ... »

(١) أبو المحاسن : ج ١ ص ٢٣

وتلك هي سبيل التاجر الذي يحسب مكسبه وطرق الفائدة منه ... ثم استمع إلى ما يوصي به النـاس غداة الفتح ... إنه لا يقف كثيراً عن حض الناس على الصلاة والصيام ... فتلك أمور بينهم وبين ربهم ... أما هو فحسبه أن يقول « يا معشر الناس ! إياكم وخلالا أربعة فانها تدعو إلى التعب بعد الراحة . وإلى الضيق بعد السعة ... وإلى القلة بعد العزة ... إياكم وكثرة العيال ... وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل والقال بعد ذلك في غير نوال[1] ، ثم يوصي الناس بالخيل ويطيل في ذلك ... لأنها « رأس مال العربي » في الفتح والزرع ! ... وهكذا ... كان الرجل يعرف قدر الصفقة التي كسبها من عمر ، ويعرف سبيل الفائدة منها ... واحسان القيامة عليها ، وإلى هنا ويبدأ الخلاف بينه وبين غيره ... حتى عمر نفسه لا يدانى ابن العاص في مسائل المال والاستثمار ... فها هو ذا يكتب إليه يقول : « أما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه ، فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً ... وقوة في بر وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنـــة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ... فعجبت من ذلك ... وأعجب ما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبـل ذلك على غير لحط ولا جـدب ! » فيرد عليه عمرو الرد الحكيم فيقول : « ولعمري . . للخراج يومئذ (أي أيام الفراعنة) أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم ، أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام ... »

هنا نلمس الفرق بين عمرو وغيره من ساسة الاسلام ، إنه يجيد الاستثمار ، ويحسن القيام على المال ... ... وهل كان الولاة الأولون يعرفون من هذه الأمور كثيراً أو قليلا ؟ أترك الجواب على ذلك لابن خلدون فله من ذلك شكوى لا تنقطع ... ! وهنا سر الخلاف بين عمرَ وعمرو ، ومبعث هذه المراسلات التي كانت تشتد وربما وصلت إلى التعريض ... فهذا عمر يقول : « وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق المبين ، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ! ... » ثم يقول له في كتاب آخر : « إنه قد فشت لك ناشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر ! »

إن ابن الخطاب يعرف أساليب عمرو بن العاص ، إنه يخشى أن يدخر المال ... إنه ليبعث اليه محمد بن مسلمة « ليقاسمه ماله » في ظاهر الأمر ، وليكون عليه رقيباً حسيباً ! ... في باطنه ؛ كان عمر يعرف في ابن العاص صفة التاجر الماهر ... فعامله على حذر ، وأفاد منه ولـكن في حذق . ولـكن عثمان قد عزله عن مصر ... فأي خطأ هذا ... وأي جهل بطبيعته ... لو أنه وجه اليه كلاماً أفعل من كلام عمر لسكت ... لو أنه فعل به أي شيء آخر لما أهاجه ذلك هذا الهياج ... ولـكن « الصفقة » ضاعت من يده ؛ لقد عزل عمر بن الخطاب خالد ابن الوليد عن إمرة صد الشام فلم يحزن ولم يبتئس ، ولـكن ابن العاص لا يسكت ... إنه يعرض بعثمان حيث جلس ... إنه يخف إلى المدينـة مسرعا وإن الثورة على عثمان لتضطرب بين جوانحه ... وأي ثورة هي أشد من هذا الحديث البديع الذي رواه لنا الطبري كاملا :

قال عثمان : يا ابن النابغة ! ... أتطعن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بوجه آخر ؟

عمرو ـ إن كثيرا مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك

عثمان ـ استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك

عمرو ـ قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض

عثمان ـ لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولـكني لنت عليك فاجترأت ، أما والله لأنا أعز منك نفراً في الجاهلية ، وقبل أن ألي هذا السلطان

عمرو ـ دع هذا ، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به ، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان ، فوالله للعاص أشرف من أبيك

عثمان ـ مالنا ولذكر الجاهلية !

هكذا تنتهي المحاورة بين الخليفة وعمرو ... ويخرج هـذا الأخير وقد دبر في نفسه أمراً ... انه ليثير الناس على الخليفة ويقضي وقته متنقلا من مجلس إلى مجلس يبسط للناس أخطاء عثمان ... ويحرضهم على الثورة عليه ... فاذا وفق إلى اثارة الناس وانذرت الفتنة فقـد انحاز إلى قصره « العميلان » بفلسطين ... حيث وجدناه في أول هذا الحديث ... فاذا بلغه مقتل عثمان فقد طرب لذلك ولم يكتم فرحه به ... وصاح يقول : « أنا عبد الله ... إذا حككت قرحة أدميتها ، اني كنت لأحرض عليه ، حتى

(١) رواها أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم